قراءة في رواية بحر الصمت
لياسمينة صالح

أ–وردية بولحواش

جامعة البويرة

إن جذور الجنس الروائي ممتدة في القدم منذ عصور خلت، فالأشكال السردية المعروفة هي أشكال متوارثة عن حقب تاريخية مختلفة، وقد كانت الرواية على الدوام في كر وفر مع الزمن، تحاول إثبات وجودها في زحمة الأجناس الأدبية الأخرى، وعن جدارة... تمكنت من أن تجد لنفسها مكانا وسطها، بل، جلست على كرسي الرئاسة ومرتاد المكتبات يرى أن أكثر الكتب اقتناء من لدن القراء هي الروايات على اختلاف أنواعها ومواضيعها، وهذا لأن القارئ وجد فيها ذاته فهي كفيلة بأن تربيه، توجهه، تهذب ذوقه، تعطيه دروسا في الحياة وباختصار، تزرع فيه حب الحياة على أن كل رواية تستمد ديناميكيتها وحياتها من داخلها، بلغتها العذبة وتأزيماتها المشوقة، بأحداثها الممتعة وحبكتها المبنية بناء يجعلك تتفاعل معها وتعيش صراعاتها، وتبقى الرواية الجنس الأدبي المتميز بطابعه التكثيفي، فهو الذي يجمع بين التاريخ والحاضر وهو الذي يقوي أواصر الأخوة ووشائج القرابة بين الماضي والمستقبل بلمسات فيها من الفلسفة والتاريخ والدين والثقافة وعلم النفس وعلم الاجتماع...ما يجعل من هذا الجنس الأدبي جنسا وظيفيا على الدوام.

وهذه الدراسة ستنصب على نموذج روائي يمثل نخبة من جيل الأدباء الشباب إنها رواية "بحر الصمت" للروائية "ياسمينة صالح". مستعملين في ذلك شبكة القراءة وهي الوسائل أو العناصر المقترحة التي تتكامل فيما بينها لكي

تقدم لنا قراءة موضوعية لكتاب من الكتب وهذه العناصر هي: المحيط النصي، المتن الروائي، القراءات الخارجية[1].

1- المحيط النصي (le para texte): يتضمن دراسة النص الفوقي (l épi texte) أو ما يسمى بالمحيط النصي البعيد، كما يتضمن النص الموازي (le péri texte) أو ما يسمى بالمحيط النصي القريب[2].

1-1-النص الموازي: هذا النوع من النصوص يعرفه جيرار جينيت بأنه "كل ما يجعل من النص كتابا يقترح نفسه على قرائه أو بصفة عامة على جمهوره."[3] وعمل النص الموازي أنه" يساعد على تحديد أفق الانتظار ويمكن من إخضاعه للتجريب أثناء مرحلة القراءة، وهو أيضا مساحة تربط بين النص الأصلي والنص الصامت الذي ينفتح على تأويلات عديدة تؤكدها أو تنفيها قراءتنا للنص الأصلي"[4].

وأهم النقاط التي يرتكز عليها النص الموازي هي (اسم الكاتب، العنوان، المقدمات، الإهداء، كلمة الغلاف، لوحة الغلاف، الصفحة الداخلية للعنوان، العناوين الفرعية). وتسمى هذه العناصر عتبات النص وهنا يعرف جيرار جينيت النص الموازي تعريفا دقيقا بالقول أنه(عبارة عن ملحقات نصية وعتبات نطؤها قبل ولوج أي فضاء داخلي.)[5]، فالعتبات متكاملة هي التي تشكل النص الروائي، ومن هذا المنطلق ستفصل هذه الدراسة في قراءة كل عتبة على حدة:

*-اسم الكاتب: كاتب الرواية الجزائرية ياسمينة صالح، روائية، قاصة، وصحفية من مواليد الجزائر العاصمة، حاصلة على شهادة الليسانس في علم النفس، تعمل بجريدة المجاهد، مشرفة على القسم الثقافي في مجلة نسائية جزائرية، وهي أيضا عضو في الجمعية الإفريقية المستقلة (Autonome) للطفولة والإعلام، كما أنها عضو في الجمعية المغاربية للثقافة والصحافة الحرة ومقرها(M-C-P)، مهتمة بالترجمة، من إصداراتها: بحر الصمت (رواية)، وطن

الكلام (مجموعة قصصية)، ناستالجيا (ترجمة أدبية)، وقد ترجمت أعمالها إلى الفرنسية والإسبانية، حازت على جوائز أدبية في كل من الجزائر، تونس، لبنان، فرنسا، المملكة العربية السعودية، العراق[*].

*–العنوان: عنوان الرواية هو بحر الصمت وقد جاء مكتوبا بلون أخضر وبخط غليظ وجميل وطريقة كتابته بهذا الشكل تحمل وظيفة جمالية إغرائية إنها تعطي القارئ قوة تحفيزية لقراءة ما يكتمن داخل هذا الخط، ثم إن وظيفة العنوان الممتلئ هي دلالته على النص وإشارة لمحتواه الكلي ولو قمنا بتفكيك عنوان "بحر الصمت" كدال لغوي نجده يتكون من لفظتين مشحونتين الأولى "بحر" وهي تحيلنا مباشرة إلى مرجعين اثنين:

–المرجع العربي الشعبي من خلال مغامرات السندباد البحري في حكايات ألف ليلة وليلة، مغامراته وعجائبه الطريفة في البحر.

–المرجع الغربي الإغريقي وأسطورة "أليس" من خلال مغامراته مع حوريات البحر.

وباجتماع هذين المرجعين سنتصور الرواية كثافة دلالية مليئة بالخيال واللامعقول، لكن، سرعان ما نعيد تأويلنا إذا ما نظرنا إلى الشطر الثاني من العنوان ممثلا بلفظة "الصمت"، هذا الدال المغلف بنزعة تشاؤمية تغلف الرواية وتميل بها إلى اللاكلام، الدال الرومانسي الذي يجنح بصاحبه إلى العزلة والتأمل والتفرد وبالتالي إلى الصمت، والبحر الذي وظفه أغلب الشعراء الرومانسيين يلائم تماما نزعتهم الانعزالية، يقول إيليا أبوماضي:

إني قد سألت البحر يوما **** هل أنا يا بحر منك[6].

ومن جهة ثالثة، لو قرأنا العنوان كوجود لغوي بلاغي وجدناه تشبيها بليغا من باب إضافة المشبه به إلى المشبه وتقديره "الصمت بحر" هذا اللون الخيالي هو(وليد التصور)[7]. وهذا التركيب غير المتجانس بين البحر والصمت يدل على

عبقرية الروائية في أن توجد بينهما علاقة ما، فالبحر هوالهيجان، هو الحركة، هو الضجيج، في حين أن الرواية حبلى بالأشياء المسكوت عنها، فهي فضاء واسع من الصمت، قد يكون الصمت عن الحقيقة، أو الصمت عن الظلم، أو الصمت عن الإفصاح عن المشاعر الداخلية... على أن هذا الصمت سينكشف بعد دراسة الرواية من كل جوانبها.

*-لوحة الغلاف: تعتبر صورة الغلاف العنوان الرئيسي الثاني بعد العنوان الرئيسي الأول الخطي[8] ومثلما يساعد العنوان الخطي القارئ على بناء سيناريو خاص بالرواية ويكوثره بصورة واضحة في ذهنه فكذلك صورة الغلاف لأنها كفيلة -بعد تأويلها- بأن تكشف ولو جزئيا عن المعنى العام للرواية والآن سأطرح أسئلة ثلاث هي:

- هل جسدت الصورة الموضوعة على صفحة غلاف" بحر الصمت" موضوع الرواية؟.

- هل استطاعت منشورات الاختلاف "وهي مصمم الغلاف" التعبير بالألوان عما عبرت عنه الروائية "ياسمينة صالح" بلغة الحروف؟.

- وهل استطاعت منشورات الاختلاف أن تكثف موضوع الرواية إلى درجة اختزاله في لوحة هي غاية في البساطة؟.

أولا، يجب الإشارة إلى ما كتب على صفحة صورة الغلاف، إذن، في الجهة العليا إلى اليمين نجد اسم الروائية مكتوبا بخط أخضر فاتح وفي وسط الصفحة وبنفس اللون كتب العنوان لكن بخط مختلف عن الأول، وأسفل العنوان وبنفس اللون والخط كتب وبشكل مائل المؤشر الجنسي "رواية" وربما كتب بهذه الطريقة للدلالة على أن الرواية فيها الكثير من الانزياح إن على مستوى المعنى أو اللغة. في أسفل الصفحة تماما وإلى جهة اليسار نجد اسم دار النشر وهي منشورات الاختلاف، وفي حافة الجهة اليمنى وبنفس اللون "أي الأخضر" كتب

أن الرواية حازت على جائزة مالك حداد وهذه الجملة ذات بعد إشهاري إغرائي لأنها تحفز فضول القارئ للغور في كنه الرواية ليعرف السبب الذي جعل الرواية تنال هذه الجائزة دون غيرها من الروايات.

ثانيا، صورة الغلاف جاءت بلون أزرق قاتم مع وجود حمرة خفيفة أسفل هذا الغلاف جهة اليمين وفي الوسط إلى الأعلى قليلا وُضع إطار عمودي مستطيل بلون داكن لا شيء رُسم داخله سوى العنوان المكتوب الذي يحتل الجزء الثاني منه "الصمت" أكبر مساحة مع المؤشر الجنسي أسفل هذا الإطار، كما نجد اللون البني من أعلى الغلاف إلى أسفله في الجهة اليمنى "طولا" وهو شريط بحوالي 2 سنم كُتب داخله بأن الرواية حازت على جائزة مالك حداد.

وتفسير اللوحة هو الآتي:

– إن استعمال الألوان الداكنة هو إيحاء موضوعي للاضطرابات والغموض والأحزان.

– قد تكون الزرقة المهيمنة على الغلاف هي زرقة البحر لكن، البحر أزرق فاتح وزرقة الغلاف داكنة، ربما يكون بحر الروائية قد خزن وترسبت فيه الكثير من الأسرار، فتراكمها وعدم البوح بها هو الذي غير اللون من فاتح إلى قاتم.

– الفراغ داخل الإطار يطابق تماما عنوان الرواية "الصمت"وقد أخذت هذه الحروف مكان الرسم كما أن عدم الكلام هو كلام وعدم رسم أي صورة هو مؤشر الغموض الذي يكتنف الرواية، وبما أن الصورة تجسد الكلام فخير صورة تمثل الصمت هي اللاصورة أو اللارسم.

– والمتمعن جيدا في وجه صفحة الغلاف يلمح تموجات خفيفة ربما هي تموجات البحر، أوهي تموجات النفس الإنسانية الحاملة للثنائيات الضدية المختلفة بين الحزن والفرح، السعادة والكآبة، النجاح والخيبة.....

– اللون الأحمر الذي نراه أسفل الصفحة هو لون الشفق الأحمر، وهو إيذان بقرب نهاية الأحزان والصمت وميلاد الأفراح والكلام.

*– الصفحة الداخلية للعنوان: هي الصفحة الموالية للصفحة الرئيسية، يسميها جيرار جينيت بصفحة العنوان المزيفة، وتحتوي على اسم الكاتبة في وسط الجهة العليا، يتوسطها العنوان المكتوب بشكل بارز، يتموقع أسفله إلى جهة اليسار المؤشر الجنسي، وأسفله وداخل إطار صغير كتب بأن الرواية حازت على جائزة مالك حداد للرواية، وإعادة هذه المعلومة يحمل دلالة إشهارية إغرائية تدفع القارئ دفعا لقراءة الرواية، كما نجد إعادة كتابة في وسط أسفل الصفحة اسم دار النشر "منشورات الاختلاف" هذه الدار الواقع مقرها بالجزائر العاصمة وهي تهتم كثيرا بالأعمال الأدبية الجزائرية وتشجع المواهب الجديدة المتفتحة.

وما يلاحظ على هذه الصفحة هو إعادة كل المعلومات الواردة في صفحة العنوان الرئيسية تأكيدا لها وتمهيدا لما سيرد بعدها.

*– المقدمات والإهداء: الرواية خالية من أي تقديم أو إهداء، ربما لأن الروائية أرادت أن تدخل مباشرة في سرد أحداث الرواية.

*– العناوين الفرعية: جاءت الرواية خالية من العناوين الفرعية لكون الكاتبة لم تجزئها إلى فصول، وما يلاحظ هو وجود الأعداد من الرقم 1 إلى 19 ووظيفة هذه الأعداد هو الفصل بين الأحداث، ففي الرقم"1" وهو من الصفحة الخامسة إلى التاسعة نجد توطئة للرواية وهي بمثابة المقدمة، وكان الرقم "19" بمثابة خاتمة، وما بين الرقمين مجموعة من الأحداث، والكاتبة لم تصرح بهذا التقسيم إنما يُفهم تلقائيا، وكأنها فضلت لغة الأرقام "1–2–3..19"

على لغة الحروف «مقدمة – فصل أول–.....خاتمة"

*-كلمة الغلاف: في الصفحة الأخيرة للغلاف نجد نفس الألوان المعتمدة في لوحة الغلاف أي البني الداكن وهو دليل يقوي الغموض والحزن والاضطرابات التي ستصادفنا داخل الرواية كما نجد فقرة مكتوبة بلون أصفر هي اعتراف عاشق شبه حبه لحبيبته بحب قيس بن الملوح لابنة عمه ليلى يقول فيها: "كم أحببتك...كنت أشبه قيس بن الملوح في عشقه المجنون وفي جنونه العاشق وكنت أنت..." وكتابة هذه الفقرة تحديدا باللون الأصفر أكبر دليل على غيرة هذا المحب.

- في أسفل الصفحة إلى اليمين كتب بخط أبيض: "طبع هذا الكتاب على نفقة الصندوق الوطني لترقية الآداب والفنون وتطويرها التابع لوزارة الاتصال والثقافة".

-أما في أسفل الصفحة إلى اليسار فقد ضبط سعر الكتاب وهو 51. 52 دج.

- في الأسفل تماما جهة اليمين رمز isbn: 9961-832-34-5

- ومجمل القول أن الرواية جاءت في طبعة متوسطة الحجم، أنيقة الشكل، ذات 127 صفحة.

1-2-النص الفوقي (المحيط النصي البعيد): يشمل هذا العنصر القراءات النقدية الخاصة بالعمل الأدبي، تعليقات ذاتية للكاتب، شهادات الآخرين، مراسلات خاصة، مذكرات الكاتب، الاستجوابات والحوارات التي أجريت معه.

ورواية بحر الصمت وصاحبتها ياسمينة صالح قليلون من تحدثوا عنها لأنها روائية حديثة العهد بالكتابة لذلك فما وجدته عنها كانت معلومات قليلة في الإنترنت ويتعلق الأمر بحوار أجرته في ندوة صحفية مع بعض التعليقات الذاتية وبعض شهادات المعجبين بها ومقتطف من قصيدة شعرية حرة بعنوان

"سامحونا" وفيها يتبين جليا الموقف النبيل للكاتبة تجاه وطنها الجزائر، وصانعوا حرية الجزائر "الشهداء" ومهدموها "القتلة" تقول:

نحن الذين سكتنا دهرا ونطقنا شرا...

نحن الذين عبرنا الكلمات كلها كي لا نقول شيئا...

كي لا نقف في الصفوف الأمامية خوفا من موت يرافق خطانا...

سامحونا...

اليوم نستيقظ على دمكم الغزير...على وجهكم الذي نعرفه جيدا

نعرف كم خناه في مسيرتنا الطويلة نحو الوهم الذي أسميناه سلاما

أيها الطالعون من الصمت..الصارخون بالشهادة.. الغاضبون.. الثائرون.. الرائعون

كيف استطعتم استدراجنا إلى هذا المدى المفتوح على دمكم

لنعرف حدود خيانتنا الطويلة، وما اقترفناه في حقكم من الذنوب ومن الآثام كيف

سامحونا

لن يكفي الدهر كي يغسل خطانا

كي ينسى الحاضر شكلنا البائس

صمتنا البائس..وجودنا البائس

كي ندفنكم كما يليق دفن الشهداء

لا الكلام ولا السكوت لا الحياة ولا الممات

لا الأمام.. ولا الوراء.. فسامحونا

ها..عجزنا عن العودة إلى النقطة الصفر عندما اكتشفنا أننا كنا الصفر المكرر في معادلة أنتم أبطالها

يايل الثورة والنخوة في زمن الدعارة والخيانة

سامحونا.. سامحونا.. سامحونا.[9]

-من خلال هذا المقطع نخلص إلى أن الروائية تحمل شحنة حب كبيرة للوطن، لكنه حب ممزوج بالأحزان والآلام والجروح.

-أما حوارها مع (rano) فسأدرج بعضا منه فقط لأنه جد مطول، نجد[10]

س1: من هي ياسمينة صالح المواطنة الجزائرية؟

ج1: من الصعب الرد على هذا السؤال دونما الإحساس بالارتباك..من أنا؟ كاتبة وصحفية جزائرية خريجة كلية علم النفس.. حاصلة على جائزة مالك حداد للرواية التي تشرف عليها الروائية الكبيرة أحلام مستغانمي، عن روايتي "بحر الصمت" الصادرة عن دار الآداب ببيروت، صحفية أيضا أشرف على القسم الثقافي بمجلة نسائية.

س2: متى كانت محاولاتك الأولى في الكتابة؟

ج2: كانت على جدران الحي والمدينة وعلى جدران بيتنا أيضا، كنت طفلة مبهورة بذلك الشيء المقدس الذي من خلاله أقول ومن خلاله أحتج ومن خلاله أبكي أيضا.. شيء اسمه الكتابة بكل عرينها.. مع السنين لم أستطع التخلص من ذلك الهوس ووقعت في فخاخها الجميلة والموجعة.. سكنتني الكتابة من الوريد إلى الوريد.

س3: هل اخترت بالقلم الدفاع عن قضية تؤمنين بها ككاتبة؟

ج3: الكتابة مساحة للتعبير.. لقول أشياء نعتقد أنها الأصدق والأهم دعيني أقول لك أنني في عمق إحساسي بالفجيعة أكتب، إنها لحظة من الحرب مع الورق وبالتالي محاولة للتأريخ.. تأريخ الجرح بكل العري الذي فيه....

س4: كيف استطاعت ياسمينة أن تخدم ما تؤمن به؟

ج4: أتمنى أن أستطيع ذلك، الكتابة ليست ترفا ولا أتصور الكاتب مترف أيضا، إنها علاقة متينة مع الوجع بكل أشكاله، نحن نكتب كي لا نموت ميتة بائسة وكي نترك خلفنا أشياء تذكرنا حقا وكي نحارب النسيان بطريقة نعتقدها الأبقى..

س5: هل في كتاباتك ما يصور صمود وثبات الشعب الجزائري؟

ج5: أعتقد أنني في روايتي الأخيرة "بحر الصمت" قلت كلمتي في ثورة أعتبرها رائدة على الرغم من كل شيء ألا وهي ثورتنا التحريرية الكبرى وأعتز كثيرا بحقيقة مفادها أن الثوار يصنعوننا دائما حتى يصيروا شهداء.."بحر الصمت" هي الرواية التي حاولت التقرب بها من وطن أعيشه بكل جوارحي وهي طريقتي في حبه أيضا.

س6: ما هو مدى الحلم عند ياسمينة صالح؟

ج6: حلمي شاسع كالجرح تماما، قبالة كل هذه الإسقاطات التي تقابلنا يوميا، قبالة الموت والخراب المدهش، أنا طفلة فقدت حلمها وأرادت استعادته بالكتابة.

وأخيرا أطلب من الكاتبة كلمة أخيرة في هذه المقابلة.

– بل كلمة أبدأ بها هذا اللقاء أقولها لكل الرائعين في هذا الموقع، إننا نكتب كي نقول كلمتنا ولهذا علينا أن نقولها من صميم ما نؤمن به..من عمق قضايانا اليومية وبحثنا الطويل عن الحقيقة الضائعة بين أرجل الكبار

وإذا الشعب يوما أراد الحياة *** فلا بد أن يستجيب القدر

– أما التعليقات التي دُعمت بها الرواية فهي[11]:

– رواية ياسمينة صالح حازت على جائزة مالك حداد لعام 2001–2002 مناصفة مع رواية "بوح الرجل القادم" لإبراهيم سعدي وهي جائزة تأسست

بمبادرة من الروائية أحلام مستغانمي تكريما لذكرى مالك حداد وتشجيعا لكتاب اللغة العربية الصامدين في الجزائر.

– في بحر الصمت تداخل جميل بين الحب والوطن والثورة، ينطوي هذا التداخل على أبعاد دلالية هامة ومعان عميقة تمزج الحب بالتاريخ وقد تجلت براعة المؤلفة في إيجاد شخصيات ذات رموز قادرة على الحفاظ على مرجعيتها الواقعية كما يتفرد السرد بشاعرية مرهفة ومؤثرة ترتقي بالرواية إلى مستوى فني لافت.

إذن وبعد كل ما سبق ذكره أرى أن القارئ قد كون فكرة عامة عن الرواية، أظن أنه قد وُلد فضول داخله ليلج الرواية ويتفحص سطورها ليعرف ما تقول.

2–المتن الروائي: يضم هذا العنصر قراءتين، القراءة الشكلية والقراءة الداخلية وهذه الأخيرة تضم الجملة البدئية والجملة الختمية والبنية العامة للنص ثم البنية السردية والخطابية أما القراءة الشكلية فيُدرس فيها الجنس والنوع وسأبدأ بهذه الأخيرة.

2–1–الجنس: بحر الصمت رواية وهذا ما يجعلنا نتحدث عن البنى الإحداثية الثلاث لهذا الجنس وهي الشخصيات، الزمان، المكان وتكامل هذه العناصر فيما بينها هو الذي يجعل الرواية تحافظ على أفق انتظار له خصوصية التشويق والتحميس.

أ–الشخصيات: انبنى هذا العمل على شخصية واحدة رئيسية والشخصيات الأخرى ثانوية، الشخصية الرئيسية هي "سي سعيد" وقد تميزت هذه الشخصية بتقلبات كثيرة في حياتها، عندما كان سي سعيد طفلا كان يدرس في العاصمة وكان يأمل والده "سي البشير" أن يراه طبيبا لكنه عاد إلى القرية فاشلا يجر الخيبة وراءه... وفي سن العشرين كان قد ورث أرضا عن

أبيه وبفضلها أصبح ذا وزن في القرية، يحيط به فلاحون ضعفاء فقراء ويدير شؤون أرضه "بلقاسم" وقد اختاره "سي سعيد" لأنه كان قوي البنية، خشن السلوك لا يرحم أحدا، وزيادة على ذلك كان قبيح الوجه، اختاره "سي سعيد" تحديدا حتى يخافه الفلاحون وقد قال عنه (كان بلقاسم بالنسبة لي أشبه بفزاعة مخيفة الشكل توضع وسط حقل مشاغب)[12]. وفجأة يتحول "سي سعيد" من فلاح استغلالي مشهور يهابه كل الفلاحين وهو جد مسرور بألوان المشاق والمتاعب التي تُلقى على عاتقهم يتحول إلى مناضل محب للثورة والنصر، لكن، ليس لأجل الوطن بل لأجل عيون جميلة هذه المرأة التي أحبها من أول مرة التقى بها وكان ذلك في زيارة له لصديقه "عمر" معلم القرية بداية والمناضل الثوري بعد ذلك، يقول "سي سعيد"في اعتراف يناجي فيه نفسه (كنت أمشي إلى الحرب لأجلك، فقد كان يهمني أن تعرفي أن الحرب بالنسبة لي رجولة من نوع خاص.)[13]، وبعد الاستقلال يتقلد مناصب هامة في الحكومة الجديدة ويتزوج جميلة، المرأة التي طالما أحبها وحلم بها، ولكنه كان –على الدوام– صامتا في البوح لها بمشاعره إلى أن ماتت وخلفت له ابنين، "رشيد" سمته أمه وقد حمل اسم حبيبها الشهيد، و"فتاة" تُركت الحرية فيها للوالد لتسميتها، وهو مع صمته المبالغ فيه لم يبح بحبه الكبير لابنيه ولو لمرة واحدة، لكنه يستحق كل الثناء لأنه بقي وفيا لزوجته حتى بعد موتها.

أما الشخصيات الثانوية فسأركز على الأكثر بروزا ودورا في تغيير مجرى الشخصية الرئيسة

*سي البشير: هو والد سي سعيد، كان يتمنى أن يصبح والده طبيبا، وأن يزوجه بزهرة ابنة العمدة.

*العمدة: اسمه قدور كان أميا لا يفقه في الأمور شيئا (وقد كان واحدا من الذين استفادوا من وجود فرنسا في الجزائر، فكانت فرنسا جزءا لا يتجزأ من طموحاته) [14].

*بلقاسم: هو المدير المشرف على شؤون أرض سي سعيد، سخر كل عنفه وجبروته للسيطرة على الفلاحين وانتهى به المطاف أن أصبح مناضلا مخلصا للوطن وقد قال عنه سي سعيد (بدل السوط بالرصاص والرشاش وأضاف إليه هوية جزائرية كاملة) [15].

*عمر: جاء إلى القرية معلما للصغار ثم أصبح مناضلا في صفوف جيش التحرير بإرادة لا تقهر، لكنه لم ينعم بغبطة النصر لأنه قُتل قتلة جبانة.

*جميلة: أخت عمر، لم تحب سي سعيد، تزوجته فقط لأنها بقيت وحيدة بعد موت أخيها وأمها، كانت آثار الحزن والكآبة لا تفارق وجهها وقد ماتت وهي تلد ابنها رشيد.

*رشيد1: حبيب جميلة وخطيبها كان مناضلا مخلصا، ومتأكدا بانتصار الجزائر والعودة إلى حبيبته، لكن حلمه لم يتحقق فقد اُستُشهد وترك الساحة لسي سعيد.

*رشيد2: ابن سي سعيد وجميلة، هو الآخر مات لأنه كان مدمنا على المخدرات، لم ينتبه الأب لإدمانه إلا بعد فوات الأوان.

*ابنة سي سعيد: كانت تحب شخصا اسمه عثمان، وكانت فنانة تشكيلية موهوبة وهي الأخرى لم ينتبه لها والدها إلا بعد أن فقد ابنه رشيد، فبقيت وحدها تتضرع مع والدها الصامت كؤوس العذاب والوحدة والفراغ.على أن الملفت للانتباه أن هذه الشخصية لا اسم لها فهويتها لم تجسدها أي كنية، بل اكتفى الوالد–في كل مرة يناديها– بلفظة "ابنتي" ما جعلها ترفض وجوده الأبوي المحوري هي الأخرى، وقد يكون السبب في هذا التخفي هو أن الروائية تعمدت الأمر حتى تترك المجال للقارئ ليختار لها الاسم الذي يريد، كما قد تكون هذه الفتاة هي نفسها الروائية مختبئة –وبكل ذكاء–داخلها.

ب–المكان: جاء متعددا بين القرى والجبال والمدن، فحياة سي سعيد دارت في قرية "براناس" على بعد 35كلم من مدينة وهران، والقرية نفسها يعود إليها سي سعيد في أواخر حياته وهو يطلب من ابنته الوحيدة مرافقته، والمكان الثاني كان الجبال الكثيرة التي شهدت الثورة واحتضنت الثوار، أما المدينة فكانت الجزائر العاصمة وتحديدا بلكور المكان الذي درس فيه سي سعيد وحيث سكنت جميلة وأسرته بعد الاستقلال، هذه الكوكبة من الأمكنة قد جسدت الأحداث تجسيدا دقيقا حتى ليبدو للقارئ وكأنه إزاء صور فوتوغرافية، بل الأكثر من هذا أنها جاءت مشحونة بظلال مكثفة لتدل مرة على الوطن، ومرة على الخلود، ومرة على التحدي والصمود، ومرة أخرى على الجمال الأنثوي، تقول الرواية هذه عن الظلال المكانية (ذاكرة وطن تشهد أن قالمة، خراطة، سطيف ليست مدنا بقدر ما هي عشق حميم على ضفة بحر تسكنه حورية خالدة)[16].

ج–الزمان: هو عنصر بنائي في الرواية يؤثر تأثير واضحا في مجرى سير الأحداث وسنشير إلى ثلاثة أنواع من الأزمنة وهي "الزمن الطبيعي" و"زمن السرد" و"الزمن الحقيقي للرواية".

–الزمن الطبيعي: هو اليوم، الشهر، السنة... ويمكن للراوي أن يتلاعب بهذا الزمن كيفما يشاء، والسارد في هذه الرواية يبدأ من الحاضر عندما أصبح وحيدا ليغوص في الماضي ويتذكر سنوات حياته مفصلة مرورا بسنوات الثورة (1957–1960–1961) كما يسرد الأحداث متسلسلة وبين الحين والآخر يرجع إلى الحاضر لا ليبقى فيه إنما ليعود مرتدا إلى الماضي، على أن الملاحظ هو هيمنة الزمن الأسود، أي وقت الليل وما فيه من سكون ولا كلام وهذا يوائم تماما بؤرة النص الروائي الذي اقترن بالصمت.

– زمن السرد: زمن السرد متعدد من سرد لاحق إلى سابق، متزامن... وفي هذه الرواية لدينا

السرد اللاحق فقط وهو "أن يكون زمن الحكاية أصغر من زمن السرد" أي أن الأحداث الموجودة في الرواية هي في نقطة زمنية ماضية بالنسبة للنقطة الزمنية التي فيها سرد الأحداث فزمن الرواية ليلة واحدة فقط لكن السارد ينطلق من هذه الليلة (من الحاضر) ليعود إلى الماضي ويسرد لنا ما حدث له طيلة تلك السنوات وفي النهاية يعود إلى الليلة الأولى التي بدأ فيها حكيه.

– الزمن الحقيقي للرواية: كُتبت هذه الرواية حديثا جدا وقد أنهت الروائية روايتها بالقول:

"الجزائر في زمن الحزن والصمت".

2-2-النوع: الرواية واقعية اجتماعية تتحدث عن واقع الجزائر ومعاناة أبنائها، رضعت من التاريخ واتكأت عليه لتثبت واقعيتها وأكثر ما أخذته عن التاريخ هو أحداث الثورة المجيدة التي صنعت استقلال الجزائر بفضل ثوارها الأشاوس.

أما القراءة الداخلية فقلنا، إنها تضم الجملة البدئية، الجملة الختمية، البنية العامة للنص، البنية السردية وأخيرا البنية الخطابية. وإذن

– الجملة البدئية: قد تكون كلمة أو جملة أو فقرة، لها دور إغرائي تحميسي، كما تضع القراءة في سياق المتخيل، وسنأخذها كتمظهر ثم كمعنى، أما كتمظهر فيتجسد في هذه العبارة "أرفع عيني إلى الصورة المعلقة يمين الجدار فأصاب بما يشبه الذهول وأنا أكتشف قدرتي على قراءة ما بين سطور الفراغ واللامنتهى... في زمن آخر كنت أعرف عن صورتي الكثير ولكن... كل شيء تغير، تغير تماما"[17]. وكمعنى يتبين لنا من خلال هذه العبارة رجوع السارد إلى الحقيقة التي نام عنها طويلا وصمت عنها الزمن كله، الشخصية

الرئيسية تستفيق على حقيقة مرة هي كتمها لمشاعرها تجاه الزوجة والأولاد، لكنها في الأخير تعترف بخطئها وهذا ما يجعلنا ننجذب لهذا الاعتراف ونتمسك بأحداثه اللاحقة.

– الجملة الختمية: تكون في نهاية الرواية وكذلك قد تكون كلمة أو جملة أو فقرة وهي –كتمظهر" أنا بحاجة إلى وضوحك قبل أن أذهب فارغا من ذاكرتي ومن صمتي الذي صار بحرا"[18].

– وكمعنى هذه الجملة تطابق إلى حد ما نهاية أحداث الرواية المتمثلة في رجاء الوالد من صغيرته أن تصارحه وأن تسامحه على حنانه المنعدم معها مذ ولدت، وعلى صمته الذي التصق به حتى أصبح يشكل حملا ثقيلا عليه، أما قراره الأخير فهو العودة إلى قريته الصغيرة آملا أن تعود معه ابنته.

وهكذا تنتهي الرواية نهاية مفتوحة تجعلنا نتصور موقف هذه الفتاة، هل ستسارع إلى احتضان والدها وتغفر له أخطاءه وتذهب معه إلى القرية أم ستترك له البيت وتذهب مع خطيبها دون رجعة أم ستقنعه بالبقاء معها ليواصلا حياتها معا في المدينة...؟؟؟

– البنية العامة للنص: رسمت الرواية أحداثا واقعية انطلقت أولا من معاناة الشخصية الرئيسية "سي سعيد" هذه المعاناة التي تكوثرت بين وحدة وفراغ وصمت، ثم غاصت في حوادث تاريخية تعود إلى الثورة التحريرية المجيدة وهي وقائع تنطبق تماما على كثير من الجزائريين ممن شاركوا في هذه الحرب، لذا يحق لنا أن نعتبر هذه الرواية بمثابة سجل تاريخي كتب بلغة شاعرية عذبة تهذب الذوق وتزرع الوعي "التاريخي" وتترجم المكبوت.

– البنية السردية للنص: إن التعدد الذي توفرت عليه الرواية سواء من حيث الشخصيات، أو الأزمنة، أو الأمكنة، هذا التعدد أكسب الرواية حيوية وثراء فكل الشخصيات أدت دورها كما ينبغي وخدمت الشخصية الرئيسية "سي

سعيد" "السارد" الذي قص حكاية حياته مذ كان في سن العاشرة إلى أن أصبح شيخا، أما الروائية فكانت بعيدة عن الأحداث، لأنها تركت الشخصيات تأخذ استقلاليتها، تتكلم، تتحرك، تتصرف كما تريد ذلك (أن الخطاب الروائي هو أهم أشكال القول التي تحققت فيها خاصية التفاعل اللفظي خصوصا من خلال المكون الحواري.[19] أما البياضات الكثيرة التي وظفتها فقد كانت بغية إشراك القارئ في الرواية لتتيح له المجال للإضافة والتصور.

أما النشاط السردي للرواية فقد اتخذ النظامين، الخطي والدائري، تمثل النظام الخطي في سرد "سي سعيد" لأحداث حياته سردا ترتيبيا تسلسليا مذ كان في سن العاشرة... إلى بلوغه سن العشرين... إلى سنوات الثورة، نجده أولا يتحدث عن سنة 1957 ثم عن سنة 1960 التي صورها بأنها سنة الزحف النضالي الكاسح لبلوغ حلم الثوار في الحرية والنصر، ثم تحدث عن سنة 1961 عندما بدأ الوطن يجهز نفسه للفرح الجميل، وبعد الاستقلال يتحدث عن المهام التي كان يُكلف بها في الحكومة الجديدة وحديث آخر عن محاولاته المتكررة لإقناع جميلة بالزواج منه وذكرٌ لكل المساعدات التي قدمها لها ولأمها، على أن النظام الدائري قد تجسد في مطلع الرواية التي بدأت بالخاتمة وهي الوضع الذي آل إليه "سي سعيد" في نهاية الأحداث، وقد تأزمت هذه الأحداث في النظامين، وصلت إلى ذروتها في النظام الخطي عندما اكتشف "سي سعيد" أن حبيبته لها خطيب، والحل يأتي صدفة عندما يستشهد هذا الخطيب في ساحة القتال، أما في النظام الدائري فتصل العقدة إلى أوجها عندما يموت الابن على حين غرة مع نهاية حزينة مفتوحة غير مكتملة، مما جعل الرواية تحافظ على أفق الانتظار المشوق.

– البنية الخطابية: كل رواية تعتمد على حدث رئيسي يقوم الروائي بتمطيطه وتوسيعه ليشمل حوادث متفرقة لكنها تدور في فلكه، والحادثة

المركزية في رواية "بحر الصمت" هي الصمت الذي اكتنف عالم "سي سعيد" خاصة على مستوى علاقاته الأسرية، سواء مع زوجته أو مع ابنيه، لقد فشل في قهر صمته، ماتت زوجته دون أن تعرف مقدار حبه لها، ويكفيه أنه شبه نفسه بقيس بن الملوح، ويفشل مرة ثانية في التغلب على هذا الصمت مع ابنه "رشيد" الذي مات هو الآخر دون أن يعرف بأن أباه يحبه، وتبقى ابنته الوحيدة يحاول جاهدا أن يتغلب عليه هذه المرة وأن يكون لها الأب والأخ والأم فهل يستطيع كسر هذا الجدار الصعب؟ لا ندري لأن النهاية مفتوحة ...سي سعيد الرجل الصموت في حياته كان المتكلم والمتحدث الوحيد داخل الرواية بلغة شعرية تحمل ظلالا كثيفة من الدلالات المتشابكة حينا والمتجاذبة حينا آخر عبر ثنائيات ضدية زادت النص إثارة وتشويقا (فاللغة تعيش وجودها في جدل مع الواقع، تجاذبه ويجاذبها في فهم الواقع والتعبير عنه، أو تزويره والانحراف به، أو ولوجه والاستحواذ عليه، لا لسيطرة اللغة عليه، بل لتحويله وإعادة إبداعه تركيبا وصياغة وإنشاء) [20].

3-القراءة الخارجية: القراءات الخارجية كثيرة أهمها القراءة التناصية والبيوغرافية والسوسيوتاريخية والنفسية، وسأكتفي بتناول رواية "بحر الصمت" من الوجهة السوسيوتاريخية والنفسية لأن قراءتها قراءة تناصية تتطلب موضوعا خاصا لثرائها وتشعبها ولا يمكن دراستها دراسة بيوغرافية؛ لأن الرواية ليست سيرة ذاتية، بل هي قصة اجتماعية تاريخية تجسد وقائع ومعاناة نموذج من البشر.

3-1-القراءة السوسيوتاريخية: اتخذت الرواية من الواقع الاجتماعي الجزائري مادة لها فما يعانيه "سي سعيد" هذا الرجل الذي أراد أن يفرض سلطته في منزله معتمدا صمته الرهيب أداة لذلك، هذا النموذج الرجالي الحي موجود-وبكثرة- في مجتمعنا الجزائري، فإن كانت نساؤنا تصرحن بكل دقائق الأمور وتبالغن في حبهن

لأولادهن فإن رجالنا –ومهما كان حبهم لأولادهم وزوجاتهم– فهم لا يصرّحون بذلك، ربما هو شعور منهم أن هذا التصريح يضعف ويقلل من مكانتهم داخل الأسرة أو ربما هي العادات والتقاليد التي شبوا عليها.لكن الأكيد أن أمثال هؤلاء الرجال يحترقون في الداخل ويعانون.

وفيما يخص التاريخ فقد اعتمدت الرواية على مرجع ثر راسخ في ذاكرة كل جزائري، يعتز به ويفتخر إنه "الثورة التحريرية"، وتوظيف هذا المرجع أبعد الرواية عن العالم اللاعقلاني الذي تجسده الخرافات والأساطير، كما أكسبها واقعية وصدقا كبيرين، أما المرجع التاريخي الثاني فكان التراث العربي الأصيل مجسدا في شخص "قيس بن الملوح" حين شبه "سي سعيد" نفسه به على أن الفرق بين المحبين أن الأول كان جد صريح في البوح عما يكنه من حب لليلى، في حين كان الثاني جد صامت مع المرأة التي أحب "زوجته جميلة".

وانطلاق النص من الحاضر ثم الغوص به في الماضي هو أنجع وسيلة حتى يُخلد هذا الماضي ويبقى حيا، موجودا وحاضرا.

3–2– القراءة النفسية: ستركز هذه القراءة على الحالة النفسية للشخصية الرئيسية "سي سعيد" الذي تبدأ معاناته الأولى مذ فتح عينيه على عالم موحش لا يوجد فيه غير أب صارم، أما أمه فقد فقدها في عامه الأول، كان إذن طفلا يتيما وحيدا (يبحث دائما عن بديل لوالده، عن أم لا تموت قط، وحياة خالية من الصمت والاكتئاب.)[21] بعدها أراد أن يجد السلوى عند عمته التي عاش معها أثناء مزاولته للدراسة بالعاصمة، لكن معاناته الثانية تبدأ بموت هذه العمة ليصبح أكثر يتما من ذي قبل، أما المعاناة الثالثة فسببها علاقاته مع أصدقائه، فقد كان يشعر بحقد وكراهية أقرانه عندما يعود من العاصمة ويأخذ دراجته ويتباهى بها وسطهم وهذا ما جعلهم ينفرون منه ويتحاشون قربه، ما جعله هو الآخر منطويا، منعزلا، وحيدا.

أما المعاناة الأكثر ألما في حياته فهي حبه لامرأة تحب سواه ومع أنه فاز بها – كزوجة– في النهاية إلا أنه لم يعش سعيدا معها إلى أن فقدها، وتضاف

إلى هذه المعاناة خسارة ابنه في موت مفاجئ، وآخر معاناته أفاضت كأس المرارة الذي كان يتجرعه يوميا، إنه نظرات ابنته الوحيدة، تلك النظرات التي كانت تشعره بأنه المسؤول عن المآسي التي لحقت بها، ويكفيه شعورا بالمعاناة أنه لم يسمع منها ولا مرة واحدة اسم "أبي"، ولو تعمقنا في تصرفات الأب لأمكننا ذلك من تبرير صمته المركزي، ربما تلك الحياة التي تمناها في حياته عندما كان صغيرا، وهي حياة خالية من الصمت والوحدة، قد توغلت في لا شعوره وأصبحت تسير حياته باتجاه عكسي وهو البقاء صامتا منطويا، ربما تكون كذلك علاقته غير الحميمة مع والده وفقده لحنان أمه قد انغرسا في لا شعوره وانعكسا على طريقة تعامله مع ولديه "برودة، جفاف، قسوة". وخلاصة "سي سعيد" أنه عاش صراعا مريرا بحالة نفسية تشوبها الكآبة والتعاسة والصمت، فروح الإحساس بالمأساوية هو المسيطر الرئيسي عليه.

وبما أن (الأديب هو رسول عصره وناطق أمته.)[22] فقد استطاعت هذه الروائية الشابة أن تتجاوز المنوال السردي، الوصفي، التكراري الذي اعتدناه قبلا، الأمر الذي جعل رواية "بحر الصمت" رواية حب هجين تقاسم أدواره، الوطن، الزوجة، الأولاد، كان الولدان بذرتين بريئتين كرها الحياة، إلا أنهما كانا الشمعة التي أنارت ظلام بيت "سي سعيد"، لكنه لم يدرك فضلهما إلا بعد فوات الأوان، أما الزوجة فكانت الوريد الذي يوصل الدم إلى قلب "سي سعيد" ليعطيه الحياة، ومثلما كانت السعادة والفرح والابتهاج، كانت الحزن والمعاناة والاكتئاب، أما عن الوطن فقد ولدت الرواية أساسا لمساءلة ذاكرة الفتن المتتابعة المتلاحقة والدم الذي خضب أرض الجزائر ليروي سنوات القحط والجفاف، دم الجزائر رمز الثورة التحريرية المجيدة التي كانت أصدق وحي وأغنى مادة أمدت الأدباء بسيل جارف من الكلمات والمعاني، فخصوبة أفكارهم وثراء توجهات شخصياتهم أُقتبست من هذا المشعل المتأجج الذي كان–على الدوام– لهبا مقدسا.

الهوامش:

(1) –التعريف مأخوذ من حلقة بحث للدكتور واسيني الأعرج، الدرس ألقاه على طلبة الماجستير، دفعة 2004.

(2) –المرجع نفسه.

(3) – G-Genette, Figures ///, Edition du seuil, Paris 1972, p7.

(4) –هذا التعريف كذلك مأخوذ من حلقة بحث للأستاذ الدكتور واسيني الأعرج، لنفس الدفعة.

(5) –حميد الحميداني، عتبات النص الأدبي، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي بجدة، مج 12، ع 46، شوال 1423هـ، ص 8.

(6) –البيت من قصيدة الطلاسم للشاعر اللبناني الرومانسي إيليا أبي ماضي.

(7) –د/شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، دار الحداثة، ط1، 1986، ص144.

(8) –تعريف الأستاذ الدكتور واسيني الأعرج، في حلقة بحث ألقاها على طلبة الماجستير.

(9) –(10) –(11) –المعلومات المتعلقة بالكاتبة أخذت من الإنترنت وتحديدا من هذا الموقع: http: // www. Arabian. Com/images/f2. Jpg.

(12) –ياسمينة صالح، بحر الصمت، منشورات الاختلاف، ط3، 2004، ص 15.

(13) –الرواية، ص 113.

(14) –الرواية، ص 10.

(15) –الرواية، ص 67.

(16) –الرواية، ص 39.

(17) –الرواية، ص 05.

(18) –الرواية، ص 127.

(19) –عثمان بدري، وظيفة اللغة في الخطاب الروائي الواقعي عند نجيب محفوظ، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2000، ص170.

(20) –منذر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998، ص39.

(21) –الرواية، ص44.

(22) –عمار بن زايد، النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، ص103.